أحمد بدوى ••• وعبد الرحمن زكى

صورة ••• وتحيـــة

بدر الدين أبو غازى

فى أقل من عام فقـــدت مصر ثلاثة من كبار علمائهـــا ومؤرخيها ، الأستاذ الدكتور عبد الرحمن زكى ، والعالم الجليـــل الأستاذ الدكتور أحمـــد بدوى ، ومؤرخ مصر الحديثة الأستاذ الدكتور أحمـــد عزت عبد الكريم •

ولكم كنت أود أن أف العلماء الثـــلاثة بعض حقهم من الانصاف والعـــدل فى هـــذا الحديث ، لولا أن حديثـــا واحـــدا يقصر عن هـــذا الوفاء ، ولولا أن الجمعية المصرية للدراسات التاريخية تعـــد العـــدة لتكريم آخـــر •

غير أنى أود فى بدايات الموسم الثقافى للجمعية أن يكون حديثى الذى دعيت اليـــه تحية لاثنين منهما ربطتنى بهمـــا مودة وثيقة كمـــا الفت بينهما ظروف الحياة فتلاقيا فى كثير من مجالاتهـــا ، عملا معـــا وجمع بينهما صدق النيـــة وحماس الرغبة كما تلاقيا فيما يلتقى فيه أهـــل الفكر والثقافة من قلق على كثير من الأوضاع كان يدفع بهمـــا أحيـــانا الى شىء من اليـــأس حين تصدمهم الهوة السحيقة بين الأمل والواقع بين التطلع والمعوقات • كانت الصلات بين العـــالم الجليل الدكتور أحمـــد بدوى وخبير الآثار الاســـلامية ومؤرخهـــا الدكتور عبد الرحمن زكى وثيقـــة وقديمـــة •

غير أنى التقيت بهمـــا معا عنـــد اعداد الموسوعة العربية الميسرة

حين كان الدكتور عبد الرحمن زكى رئيسا لتحريرهـا وكان الدكتور أحمد بدوى عضوا فى مجلس مديريها وكنت من المشاركين فى اعدادها • ثم همـا يتلاقيان أيضا فى الجمعية التاريخية وفى عضوية المجمع العلمى المصرى ، وفى لجنـة التاريخ بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية • وفى لجنـة التاريخ بمجمع اللغـة العربية ؛ وفى ميـادين أخرى من ميادين العمل الثقـافى •

كلاهما سمح النفس ، فيـه فيض من المرح والسخرية كأنمـا هو على مر السنين يزيد • وأن تخفى ذلك كله وراء ملامح جادة ، وطبع حـديد •

تعاونت معهما منفردين ومجتمعين فلمست فيهمـا مثابرة جـادة ، واخلاصا وشهامة : وكانت أكثر مجالات تعـاوننا المشترك فى لجنـة التاريخ بمجمع اللغة العربية اذا كان بدوى مقررها ، وكان عبد الرحمن زكى أحـد خبرائها ، كما اشترك ثلاثتنا فى التخطيط لمتحف حربى ضخم كانت الدولة تزمع اقامته وكاد الدكتور عبد الرحمن زكى يتخلف عن هـذه المهمـة ولكنه استجاب كريمـا لدعوة الدكتور بدوى وان ظل يذكر فى مرارة ما تعرض له من نكران واساءة حين ترك المتحف الحربى الذى كان له فضل انشائه •

وتلك آفة من آفات حياتنا العـامة لم تسلم منها الحياة الثقافية فلا يكاد مسـئول يترك موقعه حتى تنسى أفضاله ويطوى أثره ان لم تلاحقه اساءات النفـاق والزلفى لصاحب السلطان الجديد •

وبعد فكم من مشابهات فى حياة الرجلين ، تقارب تاريخ مولدهما فولد الدكتور عبد الرحمن زكى عام ١٩٠٤ ، وولد الدكتور أحمد بدوى عام ١٩٠٥ ، ثم جمعتهما مسارات الحياة ، وتشابه ختام حياة حافلة عاشها كل منهما للعلم والفكر والثقافة •

وكان التمهيد لهـذا الختام متشابها فأصيب الدكتور عبد الرحمن زكى فى حادث سيارة اضطر بسببه الى تقصير خطوط نشاطه الحافل وان ظل يتوكأ على عصاه سعيا الى بعض المجالات التى لم يتخل عنها ، كذلك كان حادث الدكتور أحمد بدوى فصل الختـام فى حيـاته التى خلفت جلائل الأعمال •••• وهكذا تتابع رحيلهما كمـا تتابع مجيئهما الى الحيـاة •

أعود بعد هـذا لأصحب رحلة بدوى منـذ مولده عام ١٩٠٥ فى أبى جرج من قرى محافظة المنيـا حتى قضى نحبه فى السعودية عام ١٩٨٠

يقول بدوى فى كلمته القيمة التى ألقـاها فى حفـل استقباله بمجمع اللغـة العربيـة عام ١٩٦٠ :

« كانت خطواتى كلها فى الحياة من تدبير اللـه وترتيب القدر ، أراد أبى رحمه الله — حين حفظت القرآن — أن يوجهنى الى الأزهر ، وأراد الله المدرسة •

ثم أريد لى أن أدرس العلوم ، فلم أكد اسعى فى سبيلها عاما حتى تحولت عنها الى الآداب ، وما كدت أنتهى من المرحلة الثانوية حتى كان أبى رحمه اللـه يدفعنى الى المدرسة الحربية دفعا قويا ، ولكن اللـه أراد الجامعـة •

وأخذت أعد نفسى لدراسة الحقوق واذا اللـه رادى عنهـا بين عشية وضحاها دون أن أفكر ، ودون أن أقدر — الى لون آخر من الدراسة لم أكنقد سمعت من قبل • وفى منتصف مرحلة الطلب من أيام الجامعة أراد عميد الأدب طه حسين — ولم أكن مستطيعا أن أرد لـه طلبا — أراد أن يحولنى عن دراسة الايجبتولوجى الى دراسة الأدب العـربى ، فتشبث بى فرعون وتشبثت به ، وكان فرعون مع الأسف أقوى اغراء وأشـد بأسا » •

بهــذه الصورة الرائعة التي قدمها فى حفل استقباله أطلعنا بدوى على سر الطريق منذ بدايته ، تلك البــداية التى اكتملت ببعثتــه الى ألمــانيا وحصوله على اجازة الدكتوراه من جامعتى برلين ، وجوتنجن ، وعاد بدوى مدرسا بكلية الآداب فى أواخر عام ١٩٣٨

لم يعرف الدكتور أحمد بدوى من دنيا الوظائف غير الجامعــة دخلهــا مدرســا وخرج منها مديرا لجامعة عين شمس ثم لجامعــة القاهرة ، وتولى أثناء ذلك ادارة مركز تسجيل الآثار فحقق فيه انجازا رائعــا •• وما أجدر الجامعــة بأن تطلق اسمه علىأحــد قاعاتهــا اعترافا بفضله وأثره •

وتولى أثناء شبابه الاشراف العلمى على منطقتى سقــارة وميت رهينة واستطاع أن يقوم بالتنقيب فى العاصمة القديمة « منف » ووفق الى كشوف على جانب كبير من الأهمية التاريخية والأثرية ، كما أتيح له الاتصال بمجموعة من شباب فنانى مصر كانت سقارة قبلتهم لاجتــلاء أسرار الفن المصرى القــديم ، وكم أضاء لهم بدوى الطريق الى فهم هــذا الفن على هدى من أسرار الديانة والتاريخ ورموز اللغــة المصرية التى تخصص فى فقهها •

كانت حيــاة بدوى العلمية حياة خصيبة فنشر باللغة الألمــانية كتابه عن المعبود « خدوم » وأبت فى دراسته مكانه بين المقدســات المصرية •

كمــا نشر دراسته عن منف العاصمة الثانية ابان عصر الدولة الجــديثة ، وقد ألقى بهــذه الدراسة أضواء جديدة على تاريخ المدينة القديمة ومركزها الثقافى والحربى ، وعلى المدرســة الدينية التى أثرت فى العقيدة المصرية ••• وقد أتاح له تعمقه فى دراســة العقيدة المصرية على عسرهــا ، وامتلاكه أسرار التاريخ المصرى القــديم أن يقدم عن منف وتاريخهــا مؤلفــا بل مرجعا فذا وفريدا فى عمقه وسعته •

وهـــذا المؤلف الكبير حقيق بأن يترجم الى اللغة العربيـــة •

وقد عنى الدكتور بدوى بدراسة العلاقة بين اللغة المصرية القديمة واللغات السامية وصـــلا لجهود بدأها العالم الأثرى الأول المغفور له أحمـــد كمـــال باشا •••• وقد أخرج الدكتور بدوى معجمه الصغير فى مفردات اللغة القديمـــة •

وقد شارك بدوى سنة ١٩٤٧ مع أستاذنا الجليل الدكتور ابراهيم نصحى ومع الأساتذة الكبار شفيق غربال ، وعباس عمار ، وعبد الرحمن زكى فى تأليف كتاب عن وحـــدة وادى النيـــل وأسسها الجغرافيـــة ومظاهرهـــا فى التـــاريخ •

كمـــا حفلت المجلة التريخية ، ومجلة كلية الآداب ، ومجلة مجمع اللغـــة العربية ، ومجلة الاتحـــاد العلمى المصرى ، ببحوثه المستفيضة عن الهكسوس ، وعن حور محب وعن اخناتون ، وعن اللغـــة المصرية القديمـــة وصلاتهـــا باللغـــات السامية ، وعن النيل عند الفراعنة •

على أن لكل مفكر وأديب كتابا يظل مقترنا باسمه ويبقى علمـــا عليه ، وكتاب بدوى هى مؤلفه الكبير « فى موكب الشمس » ••• رحـــلة القـــرون الثـــلاثين من الحضـــارة المصرية القديمـــة بدأهـــا منـــذ استقرار المصرى الأول على ضفاف النيل ، واختتمها بدخـــول الاسكندر المقـــدونى •

هـــذا الكتاب الذى بهرنا فى شبابنا قدم حضارة مصر من منظور قومى علمى وبلغـــة أدبيـــة رائعـــة تقدم لنـــا الجواب على أسباب دعوة أستاذه طه حسين له الى دراسة الأدب بديلا عن الاستمرار فى دراسة المصريات • واو فعل بدوى ذلك لكسبته مصر أديبا وخسرته عالمـــا •

غير أن حب الأدب ظل يلازم بدوى فى حياته ، كمـا كان له مع الشعر هـوى عميق فهو راوية للشعر القـديم ، مترنم بشعر شوقى الذى كان يؤثره باعجابه وحبـه •

لقـد قدم بدوى بمجلده الضخم « فى موكب الشمس » بجزئيه أثرا عظيمـا الى المكتبة العربيـة ، وكان من رواد دراسـة تاريخ الحضارة المصرية لم يتوقف عند جانبها السياسى وانتصاراتها ومعاركها وانمـا درس علومها وآدابها ، وتعمق فى تحليل فنون عصورها برؤية فنـان نافذ البصيرة ، مرهف الحس •

لقـد أشـار أستاذه شفيق غربال حـين استقبـله فى المجمـع أنه « خير من عبر بالعربية عن الشخصية المصرية » ••

وكان شفيق غربال نفسه من السباقين الى البحث فى جوانب من هـذه الشخصية فى كتاب « تكوين مصر » •

وعلى كثرة ما كتب من مؤلفـات عن شخصية مصر بعد بدوى فان كتابه هـذا يظل عملا شامخا جديرا بأن تعاد طباعته •

لقـد كان بدوى عاشقا كبيرا لمصر ، ولكن أقليمـه المنيـا ظل الأثير بحبـه ، كمـا أن الدولة الوسطى فى مصر القديمة كانت موضع اهتمـامه الخاص فى موكبه مع الشمس •

وله فى هـذا قول مـأثور :

« أهل الجنوب قبلتى ، واستدبر الشمال ، ثم اتخـذ من الغـرب يمينـا ، ومن الشرق يسارا ، فهكذا فعل المصريون عندما جعلوا نبع النيـل ، وهو خالق الوجود المصرى قبلتهم » •

لقد أعطى بدوى الكثير فردت له مصر بعض العطاء حين منحته جائزة الدولة التقـديرية فى العلوم الاجتماعية •

ولكنه ظل على مكانته العلميـــة جم التواضع ، سمح النفس ، نراه فى مجالسه فى النـــادى الأهلى مرحا ضاحكا حتى تحسبه لا ينطوى على كل هـــذا العـــلم الغزير ، فيـــه روح العصيـــان الموروث عن أبيه كمـــا قال فى سيرته • ولكن فيه نفحة من روح أعز أهـــله الى نفســـه وأحبهم الى قلبه الشيخ الجليل مصطفى عبد الرازق فهو مثـــله بـــر ودود ، سخى مبسوط الكف حسن الذوق ، يترفع فى غير استعلاء وفيه تلك الحيرة الفلسفية التى تهـــز النفس حنينا الى المـــاضى وتدفعها نزاعة الى الجـــديد •

تلك كانت سمـــات الشيخ الجليل مصطفى عبـــد الرازق الذى أخفى تواضعه الكثير من فضـــله وما زال دوره الكبير فى حيـــاة مصر غير مدرك بكل أبعـــاده •

وكذلك كانت سمـــات فقيدنا العزيز أحمـــد بدوى الذى خلف رحيـــله فى نفوس محبيـــه حسرة لاذعة وترك فراغـــا هيهـــات أن يعوض •

أما الفقيـــد العزيز الدكتور عبد الرحمن زكى فحيـــاته فى بدايتها تختلف عن حيـــاة صديقه وزميله الدكتور بدوى فهو قـــد انخـــرط فى سلك المدرســـة الحربيـــة لم ينأى عنها كمـــا نأى بدوى فى صـــباه ، ولكن حبـــه للثقـــافة والعلم ظل ملازما له ، وأخـــذ يسعى للعـــلم فى فطـــانه ، وطالعنا اسمه فى المجلات والصحف منـــذ بواكير حيـــاته مقترنا بمقالات عن تاريخ الجيش والمعـــارك والآثار •

ولقـــد قضى عبد الرحمن زكى فى خـــدمة الجيش حقبة امتدت من عام ١٩٢٦ حتى عام ١٩٥٨ •

ولكنه تولى فى الجيش مناصب تتطلب قدرات خاصة فهو مـــدير الشئون العـــامة بوزارة الدفاع ، ثم هو رئيس تحرير مجلة الجيش •

وعندما بدأت مصر الاعداد للمتحف الحربى أوفد فى بعثة الى أوربا لدراسة نظم المتاحف ثم عاد ليتولى انشاء المتحف الحربى الذى بذل فى انشائه وتنظيمه جهدا كبيرا حتى استوى متحفا لائقا بتاريخ مصر الحربى •

وفى هذه الاثناء استكمل عبد الرحمن زكى تكوينه العلمى فى جامعة القاهرة فدرس الآثار الاسلامية ، وحصل على دكتوراه الآداب عام ١٩٥٦ •

وما أن ترك خدمة الجيش حتى عين أستاذا للآثار الاسلامية فى جامعة بغداد ، فى العام الدراسى ١٩٥٨ — ١٩٥٩ •

وقد عرف الدكتور عبد الرحمن زكى مؤلفا منذ أصدر فى عام ١٩٣٥ كتابه الأول عن القاهرة من جزئين طبعه على نفقته وطلع علينا فى هذا الكتاب باسمه مقترنا برتبته فى الجيش « الملازم أول عبد الرحمن زكى ••• من ضباط الأشغال العسكرية » •

ورغم أن أصحاب السيف والقلم فى تاريخنا الثقافى عديدون فان الملازم عبد الرحمن زكى حرص فى تمهيد الكتاب أن يؤكد الصلة بين العسكرية والآداب والفنون فقال :

« يخيل الى بعضهم أنه ليست هناك علاقة بين الجندية والآداب والفنون ••• وفى الواقع أن الفنون الجميلة متصلة اتصالا وثيقا بالحرب ••• وما هذه الا دعامة قوية لها فانا لم نر فنا من الفنون على وجه البسيطة تقوم له قائمة الا بين أمة مسلحة ، ولم نر فنا يقوم بين شعب من الرعاة أو شعب زراعى • تلك الشعوب التى تمت بطبيعتها الى السلام فان الكامل لا يقوم الا مع القوة •• ان الجندية أساس الفنون والفضائل العالية وفى مقدمة عوامل الرجولة

الكاملة • ونحن اذا قارنا حالة الفنون بعد الحرب الكبرى بحالتها قبلها تبين لنا بسهولة تلك الرابطة الوثيقة بين الحرب والفن » •

ومن هذا التمهيد يتضح أن الضابط عبد الرحمن زكى عقد فى نفسه صلحا بين مهنته العسكرية ، وميوله الأدبية والفنية ، واستطاع بهذا أن يتابع اصدار مؤلفاته العديدة ومنها :

— الاعلام وشارات الملك فى وادى النيل •
— الشرق الأوسط •
— قلعة الجبل وقلاع اسلامية أخرى •
— السيف فى العالم الاسلامى •
— التاريخ الحربى لعصر محمد على •
— سيناء •
— المسلمون فى العالم من عدة أجزاء •
— تاريخ وحضارة الدول السودانية بغرب أفريقيا •
— الأزهر وما حوله من الآثار •

هذه هى بعض مؤلفات عبد الرحمن زكى فضلا عن دراساته القيمة التى شارك بها فى مؤتمرات الآثار العربية ، وفى مهرجان الفن الاسلامى فى لندن •

على أن عبد الرحمن زكى كان له مع القاهرة الاسلامية عشق خاص •• وظل من دعاة الحفاظ على آثارها وصيانتها والعناية بالاحياء التاريخية •• كما كان الهوان الذى يصيب بعض الآثار يفجر عنده سخطا يعلنه أحيانا بكلمات يصوبها كطلقات الرصاص بينما يدفعه اليأس حينا الى هدنة صامتة •

ولم تقتصر جهود عبد الرحمن زكى على مؤلفاته بل امتد علمه الى الجامعة استاذا ومحاضرا فى الآثار ومشاركا فعالا فى كلية الاثار بجامعة القاهرة منذ انشائها •

غير أن عبد الرحمن زكى كان من العلماء الذين يقرنون الفكر بالفعل فامتد نشاطه الى المجامع والجماعات فهو عضو فى الجمعية التاريخية والجمعية الجغرافية وجمعية الآثار القبطية وجمعية محبى الاثار وجمعية الخدمة الاجتماعية وهو عضو جمعية المتاحف البريطانية ، واللجنة القومية للمتاحف بأكاديمية البحث العلمى •

كما أنه شاركنا العمل بجمعية محبى الفنون الجميلة نائبا للرئيس ، وكان من أعمدتها خلال حقبة طويلة من الزمان •

وان الجهود التى بذلها فى اعداد الموسوعة العربية الميسرة التى كان رئيسا لتحريرها ، وما أضفاه على هذا العمل من دقة وانضباط مما يذكره له كل من ساهم فى تحرير هذه الموسوعة أو اتصل بأسبابها •

كذلك كان اهتمام عبد الرحمن زكى بشئون المتاحف منذ تولى انشاء المتحف الحربى اذ ظل يتابع الدراسات التخصصية فى تطوير المتاحف ويعد بحوثا قيمة عن مستقبلها فى مصر ووسائل النهوض بها •

لقد كان عبد الرحمن زكى من هذا الطراز النادر من الرجال الذين عرفتهم مصر وعرفت من فضائلهم تنوع الخبرة ، وتعدد ميادين النشاط ، والقدرة على الانتشار فى هذه الأرض يغرسون فيها أفكارا ، ويقيمون فيها دعائم النهضة يحدوهم حب مصر الى بذل كل جهد من أجل تقدمها •

ولعل هـــذا يضيف حزنا على حزن حين نشهد رحيل هذا النوع من الرجال •

وبعـــد فليست هـــذه الا تحية لرجلين عظيمين من رجالات مصر تحمل فى ثناياها ملامح من حيـــاة خصيبة وكفاح عظيم • ولست أريد أن استأثر وحـــدى بذكرهما فلأدع الحـــديث لغيرى ، ولأتجـــه الى شخصيهما بتحيـــة خاشعة •

رحمهما اللـــه وغفـــر لنـــا ،،،